



ودويًا وهذا شديدًا شديدًا ، كأن في نفسى وعقلى أبنية تنقض وتهدم في كف زلزلة .

وإذا بحر يموج لعينى أسمع هديره وزئيره وزمجرة أمواجه في الريح العاتية ، وإذا هو أحمر كالدَّم يُفُورُ ويتوَّثَّبُ ، وإذا صرخة تخفت زمجرة الأمواج ، وإذا هو هاتف يهتف بى : « قم إلى صلاتك ، فقد أظلك الفجر !! » . فانتبهت فزعًا وإذا أنا أقلب الصفحة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب ، وإذا خطوط حمر قد ضربتها فوق هذه الأسطر : « ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء ، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ولده مشويًا ومطبوخًا ، والمرأة تأكل ولدها ... فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذ أو شيء من لحمه . ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينظرها حتى تهياً ، فإذا هى لحم طفل . وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت » (٥) .

أين يعيش أحدنا وهو يقرأ ؟ هذه تسع ساعات يخيل إلى أنى قضيت ثمانى ساعات منها وأنا أقرأ هذه الأسطر القليلة أقلبها لعينى فتقلب معانيها فى نفسى ، إذ كانت تنزع فى معناها إلى الآلام المتفجرة بدمى فى قلبى ، فلا يكون الحرف منها إلا أفكارًا تتسع وتتراحب وتتداعى وتتوالد ويتسوخ بعضها بعضًا . ولو ذهبت أكتب مآثرته فى نفسى من هذه الأسطر ، وما تحدثت به النفس من حديث أكل ثمانى ساعات من أول الليل إلى مطلع الفجر ، لمأ ذلك ما يقع فى كتاب مفرد ، ولكن ...

لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المتحجرة فى بيوت الأغنياء والأكابر ؟ ولماذا يكون أقسى القسوة فى قلب المرأة الغنية ، فتكون هى أعظم استهانة بجريمة أكل ولدها الذى ولدته ؟ ولماذا يكون الفقير والفقيرة

(٥) كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » هو تاريخ الجماعات التى كانت بمصر ، وقد طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر منذ أسابيع . وهذا الذى نقلناه من تاريخ الجماعة التى كانت بمصر فى الدولة الأيوبية سنة ٥٩٦ قفيل فيها : « سنة سبع افترست أسباب الحياة » (شاكرك) .

دائمًا هما مثال الرحمة والحب والعطف والحنان ؟ أليس الناس جميعًا - غنيهم وفقيرهم - سواء في هذه الحياة ؟ بلى ، ولكن ...

ألا إن هذا المال نعمة من نعم الله التي استخلف الإنسان عليها في الأرض ، وفي الحياة الدنيا ، ألا وإن المال عصامٌ هذا الكون الممتلئ بأسراره العجيبة التي لا يُقضى من أعاجيبها عجب ، ألا وإنه للنظام الطبيعي الذي يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية التي لا تسمو إلا بالمنافسة والرغبة فيها والإصرار عليها ، ألا وإنه لأعجب شيء في الحياة ، إذ يكون هو كل شيء ، ثم هو ليس بشيء على الحقيقة ، وإذ يكون في وهم الفقير القلق سِرَّ السعادة ، ثم يكون عند الغني المسترخى فلا يعرف به ظاهر السعادة . ألا إنه العجب والفتنة ، إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض ، ومع ذلك فهو إذا ملاً العنَى أفرغه من إنسانيته ، وإذا فرغ الفقير منه امتلاً إنسانية ورحمة وحناناً ، ثم يكون بينهما أشياء في هذا وفي ذلك تختلط وتضطرب ويرمى بعضها في بعض حتى يصبح كل شيء فساداً لا صلاح له .

« أكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت ! » و« أكثر ما يفعل ذلك النساء ! » إنه ليس عجيبيًا ولكنه مؤلم ، إنه ليس بعيدًا ولكنه مفرع ، إنه هو الحقيقة الدائرة مع معاني الثراء والغنى والترف والرفاهية ، ولكنها الحقيقة الضارية المتوحشة التي انطلقت من قيودها حين أزمتهما الحاجة والقحط والجوع ونداء المعدة التي تتلوى أمعاؤها كما تتلوى الحية الجائعة على شهواتها المتجسدة في فريستها . ليس هذا هو كل شيء ، وليس القحط وحده هو الذي يُضربُ عبيد المال فيأكلون بنيتهم وبناتهم أكل الوحش الطاغى بطغيان حيوانيته التي تريد البقاء لنفسها ، ثم لا تعرف غير نفسها ، ولا تعبد إلا نفسها . إن كل أزمة تطلق في أعصاب الأغنياء - إلا من رحم ربك - وحشًا أكلا طاغيًا مستأثرًا لا يرى إلا نفسه ولا يريد البقاء إلا لنفسه . فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غنى كان صديقه طعامًا تفرسه الصداقة الغنية ! وإذا وقع القحط بين حبيين أحدهما ثرى مترف تتأب عنه يريد النوم لأنه شبع من حبه حتى تملأ ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غنى ، كان حق الرحم عليه أن يشرب ما بقي من دم أخيه يستولغ فيه حتى يزوى !

إن الترف والنعمة والكفاية ، وأحلام الغنى وكنوز الثراء ، إن هي إلا الماحقات الآكلات التي تمحق العواطف الإنسانية النبيلة حين لا ملجأ إلا إلى الخشونة والشدة والصبر وحقيقة الفقر . إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة في النسل على ضيق رزقهم ، والأغنياء أقل الناس إقبالاً عليه على ما يجدون من السعة . الفقراء أشد حزنًا على من فقدوا من أبنائهم وأحبابهم ، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا ، ولئلا يقول الناس إنهم لم يحزنوا على أحبابهم ... الأغنياء ، الأغنياء ... نعم هم زينة الحياة الدنيا ، ولكن مع الزينة الخداع ، ومع الخداع الضعف ، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يتلين لها أو يتساهل أو يستكين ... أو يثق .

فمن صادق غنيًا فليحذر ، ومن آخى ثريًا فليتحصن ، ومن عامله فليهرب ، فإذا بلغ المرأة الغنية فأحبها فخيلت له أنها أحبته فوثق بها فقد هلك ، وإنما هو ملهاة من ملاهى الترف ، إذا فقدت لذة اللهو به نبذته لما به .